قواعد تربوية

رمضان ١٤٤٤

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

يوم الجمعة 23 رمضان

(سورة ص 27- 29)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من أهل الإيمان، أهل القرآن، المنتفعين بالمواسم، وها هو موسم رمضان، وها هي أيامه تنصرم وتنقضي، نسأل الله أن يكتب لنا فيما مضى القبول، وأن يعيننا على ما هو آت من أيامه، نسأل الله أن يرزقنا قيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا...اللهم آمين.

لا زلنا بفضل الله نقف مع آيات من كتاب الله نستخرج منها قواعد لتربية أنفسنا وتصفيتها وتهذيبها. ومن هذا ما نجده في سورة ص من أخبار عظيمة وآداب كريمة، وتصحيح لمفاهيم إذا حصل لها الضبط والفهم وصل الإنسان إلى كل خير. وهذه السورة العظيمة -سورة ص- فيها أخبار وعلوم عن أنبياء ورسل استقاموا على الطريق المستقيم وقاموا بما يجب عليهم في تبليغ الرسالة وفي إقامة الحق، ومن ذلك ما جاء به الخبر عن داود -عليه السلام- وكيف أن رب العالمين خاطبه بهذا الخطاب المليء بالتشريف (**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ**) وهذا مقام عظيم، مقام فيه تشريف وتحميل للمسؤولية، وهذا المقام الذي قامه داوود -عليه السلام- وأرشده رب العالمين فيه بوظيفته أنه خليفة في الأرض وأنه يحكم بين الناس

بالحق، هذا المعنى الذي يجب أن يبقى في عقول الخلق؛ أنهم هنا من أجل إقامة الحق، وعدم اتباع الهوى (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) هذه أعظم جريمة يرتكبها الإنسان في حق نفسه، أن ينسى يوم الحساب، والمقصود هنا بالنسيان التجاهل ليوم الحساب، والانصراف عنه، وعدم الاهتمام به. وهذا لا بد أن يورث الإنسان سلوكًا غير مستقيم، هؤلاء القوم الذين نسوا يوم الحساب هم الذين ذكرهم الله في سورة التوبة بقوله: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) أهملوا أوامر الله وغفلوا عنها، فتركهم الله في العذاب. ولذلك في سورة السجدة قال تعالى: (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ) هؤلاء يكون لهم عذاب شديد، من ضلوا عن سبيل الله وخرجوا عن الصراط المستقيم، السبب في عذابهم أنهم نسوا يوم الحساب لأنهم لو ذكروا يوم الحساب لوقع في نفوسهم خوف ولردّوا أنفسهم عن الميل مع الهوى. لكن نسيان يوم الحساب وإهماله سبب واضح في أن الإنسان يترك طلب الهدى ويقبل بالهوى ويدخل في الردى، نعوذ بالله من ذلك.

هذه الجملة الأخيرة من الآية السادسة والعشرين التي فيها التعليل لعذابهم الشديد وأنه بسبب نسيانهم ليوم الحساب، أتت بعدها الآيات التي هي موضوعنا اليوم في الكلام عن وظيفتنا في الحياة، وكيف أن الله هيأ كل شيء حولنا للقيام بهذه الوظيفة، وأننا لا بد أن نصحح مفاهيمنا حول هذه الوظيفة، فنسمع الآيات أولًا من سورة ص، ثم نفهم هذه القاعدة المهمة من قواعد تربية النفس:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29))

هذه الآيات الثلاث التي أتت بعد قصة داوود -عليه السلام- ثم أتت بعد هذه الآيات قصة سليمان -عليه السلام-، يعني هذه الآيات الثلاث كانت فاصلة بين قصة داوود وقصة سليمان -عليهما السلام- في سورة ص. ولنتأمل هذه الثلاث آيات وما فيها من إرشاد لنا لنصحح مفاهيمنا ونربي أنفسنا.

آخر جملة من القصة، كما نتذكر الآن، خبر عن الذين يضلون عن سبيل الله، هؤلاء أهل الضلال لهم عذاب شديد بسبب نسيانهم يوم الحساب، ونتيجة نسيانهم يوم الحساب أنهم لا يراعون يوم الحساب، أخبر بعدها مباشرة رب العالمين (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ). وهنا نقف عدة وقفات ليحصل الإرشاد إلى ما يجب أن يكون منا تجاه ما خلق الله في السماء والأرض وما بينهما وكيف يكون ظننا، ولكي نربي أنفسنا على حسن الظن برب العالمين، وكيف نخوف أنفسنا من سوء الظن في رب العالمين. مجمل الآية أن الله ينفي أنه خلق السماء والأرض وما بينهما باطلًا؛ لأن هذا معنى جد خطير، أن يظن الإنسان أن السماء والأرض وما بينهما التي خلقت دلالة على حكمة الله وعلى علمه وعلى قدرته أنها خلقت باطلًا! ومن ثم تجد الخلق مصروفين عن عبادة التفكر مشغولين عنها، وهي عبادة يجب أن نربي أنفسنا عليها ونلزم أنفسنا بها، وننتظر

أن يكون من آثارها حسن الظن برب العالمين. كيف يكون هذا؟ الناظر إلى السماوات والأرض، المتأمل فيها سينفي تمامًا أن تكون هذه المخلوقات خلقت باطلًا، بل سيصل إلى أن هذه المخلوقات خلقت للحق. إما هي قائمة بالحق؛ مثل خلق الملائكة والرسل والصالحين، وإما من ورائها يصل الإنسان إلى معرفة الحق. فحين ننظر إلى أحوال السماوات والأرض وما بينهما، والإنسان بفطرته يعرف أن السماوات والأرض لها خالق، إذا تأمل الإنسان أدنى تأمل سيجد في نظام هذا العالم دلالة تحصل بأدنى نظر على أنه نظام على غاية الإحكام، وأن إحكامه مطرد، ما يخرج منه شيء، وهذا ما نبهنا عليه رب العالمين في قوله تعالى: (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا**) الذي ينظر أدنى نظر يعلم أن خالقها حكيم، رحيم موصوف بالعدل، وضع كل شيء في مكانه، فالذي ينظر إلى هذه التدابير الظاهرة يستدل بالظاهر منها على الخفي، وهذا حال المؤمنين المتفكرين، ينظرون إلى السماوات والأرض وما فيهما، وينظرون إلى الحكمة من كل شيء وينظرون إلى التدابير الحاصلة حولهم، إذا تدبروا الظاهر عرفوا الخفي، بمعنى أن جميع ما في الأرض جارٍ على نظام بديع إلا أعمال الناس، ومن المشاهد أن من الناس صالحين نافعين، ومنهم دون ذلك، إلى أن نصل إلى المجرمين المفسدين. وكثير من الصالحين لم ينالوا حظوظ الخيرات في الدنيا، ربما أخذوا شيئًا بسيطًا وربما لم يأخذوا شيئًا، وهو الذي يجاهد نفسه ويرتقي بنفسه إلى معارج الكمال، وفي مقابل أن أهل الفساد كثيرًا ما يكونون أحسن حالًا في دنياهم.

ونلاحظ أن الناس حين ينظرون إلى الواقع المشاهد يستدلون به على العكس، فحين يرون المفسدين في حال حسنة، والمصلحين في حال أقل،

يجعلون هذا شاهدًا على أن الحق مع المفسدين! وهذا من اعتقاد أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا، بل المفترض أن الإنسان حين يرى المفسدين في حال لا تناسب فسادهم من التمتع بالدنيا، والمصلحين الصالحين في حال لا تناسب صلاحهم من ضيق الأمر عليهم، هذا يجب أن يخرجه بنتيجة أن يقول: (هذا وقت الاختبار، لم يأت وقت الجزاء بعد) فالناظر إلى أحوال الحياة يصل إلى هذه النتيجة بأدنى تفكر فيما وراء الظاهر، وسيقول هذا الإنسان: (لا يمكن أن يكون الله خلق الخلق باطلًا، لو لم يجعل الله بعثًا وحسابًا لذهب صلاح الصالحين باطلًا؛ أجهدوا أنفسهم وأضاعوا في تحصيل الصلاح كثير من لذائذهم الزائلة دون مقابل) فيقول الإنسان: (لا يمكن أن تكون هنا النهاية، بل هنا البداية والاختبار) لأنه لو كانت هنا النهاية لكان فساد المفسدين غنمًا لهم؛ أرضوا به أهواءهم، ونالوا به شهواتهم، ويذهب ما جروه على الناس من فساد وإفساد، لو لم يكن هناك يوم آخر لعاد خلق الأرض باطلًا، ولفاز الغوي بغوايته، ولشقي المؤمن بهدايته، وهذا لا يمكن أن يكون.

لو فكرنا في هذا سنصل إلى أن أي أحد ينكر أن الله سيحاسب الناس، ينكر أن الله -عزَّ وجلَّ- سيفرق بين الناس، يلزمه أن يكون إنكاره هذا كأنه يقول إن خلق السماء والأرض وما بينهما فيه شيء من الباطل، حين يتصور الإنسان أن إنسان عاش على الباطل حياته كلها وأتته كل الفرص من أجل أن يهتدي ويلتزم الصراط المستقيم، ورباه رب العالمين، وذكره رب العالمين، لكنه منصرف تمام الانصراف، ثم حين يموت يقول أحد: (ربنا رحيم لن يدخله النار!) نقول: (هذا الظن من أسوأ الظنون لأن بهذا يكون الإنسان ظن أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا!) فيقولون: (نحن نقول هذا من رحمة رب العالمين) نقول: (رحمة رب العالمين

كانت في الدنيا ممدودة له، لكنه ما أمسك بحبل الله، ولا قبل ما رباه الله عليه، وما نبهه إليه، فلو كان كافرًا، مات على كفره، شقيًا، مات على شقائه هل سيتساوى مع من جاهد وبذل نفسه من أجل أن يصلحها) هذا إشارة إلى أن خلق السماوات والأرض باطلًا ولا فائدة من الاختبار ولا من اختلاف الأقدار، ولا يوجد فرق بين من قام ليله يطلب من ربه العفو والمغفرة والصفح، وينكسر بين يديه، وبين من قضى ليله في المسكرات والمخدرات والآثام، وهذا لا يقوله إنسان مؤمن عاقل، بل هذا يدل على أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا، سبحانه وتعالى عن ذلك، هذا ليس ظن الذين آمنوا، بل هو ظن الذين كفروا.

من يظن أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا، هذا ظن الذين كفروا بالله. لكن أهل الإيمان يعلمون أن الله نفى عن نفسه أن يكون خلقه للسماوات والأرض باطلًا، نزه نفسه -سبحانه وتعالى- عن ذلك، وأيضًا نزهه عن ذلك عباده الصالحون؛ لأنه لا يليق بكماله وجلاله أن يخلق الله السماوات والأرض باطلًا.

ما هذا الظن الذي قيل من أجله (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)؟ هذا الظن أن يظن أن الله خلق السماوات والأرض وما فيهما من حكمة، وما فيهما من دلالة على الحق، وأنه بعد هذا كله يساوي بين المجرمين والمتقين، وهذا اعتقاد باطل، فكيف يظنه الإنسان في الله؟! ولنتذكر أن الله نزه نفسه -سبحانه وتعالى- عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلًا، فيتساوى جهد المجتهدين مع عبث العابثين، ويتساوى صلاح المصلحين وإصلاحهم مع فساد المفسدين وإفسادهم، هذا كله منفي عن الله. الله نزه عن نفسه عن ذلك قال: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لَا تُرْجَعُونَ) ثم نزه نفسه -سبحانه وتعالى- عن كونه خلقهم عبثًا، (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) تعالى وتقدس وتنزه عن كونه -سبحانه وتعالى- خلقهم عبثًا، وهذه الآيات التي في أواخر سورة المؤمنون: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) تعالى الله عن ذلك.

وأيضًا عباده المؤمنون ينزهونه في مثل قوله: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) فحين قالوا: (سبحانك) نزهوه عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلًا، فهم نزهوه، ورب العالمين نزه نفسه، يقولون: (سبحانك) ويقول: (فتعالى الله الملك الحق)

إذًا لا يمكن أن نعتقد أن الدنيا بدأت هنا وتنتهي هنا، لا والله، إنما هذا الفصل الأول في حياة الخلق، فإذا ماتوا كانوا في برزخ بين الدنيا والآخرة، فإذا قامت الساعة سيوضع كل إنسان في مكانه (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) فلا يذهب اجتهاد المجتهدين ولا يكون باطلًا، إنما يبقى محفوظًا، يرفع به أهل الإيمان عند الرحمن -سبحانه وتعالى- ويكون أهل الباطل في السفول، نعوذ بالله من حالهم. هذا الأمر إنما هو ظن الكفرة (ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) يظنون بمعنى يعتقدون، يظنون أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، هل يظنون هذا مباشرة؟ بل حين يعتقدون أنه لا يوجد ثواب وعقاب، أو حين يعتقدون أنه يساوي أهل الفساد بأهل الصلاح والإيمان، حين يعتقدون هذا يكونون اعتقدوا أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا.

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) هؤلاء الذين كفروا كانت صفتهم الثابتة، كلما أتاهم دليل أعرضوا عنه لذلك استحقوا العقاب على سوء اعتقادهم وسوء أعمالهم، وهنا تأكيد نفي الباطل عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، هؤلاء القائلين هم من سيدخلون النار، الذين قالوا: (لا يوجد حساب ولا عقاب) ، (ولا تقولوا: فرقوا بين أهل الإيمان وأهل الكفر) ، (ولا تقولوا إن هناك أناسًا طاهرين، وهناك أناسًا أصابتهم القاذورات فما طهروا أنفسهم) من يقولون هذا الكلام مضمون كلامهم أن الله خلق السماوات والأرض باطلًا.

إذًا أعرضوا عن الاستدلال بنظام السماوات والأرض وعلى أن كل شيء موضوع في مكانه، أنت تجدهم علماء في أبدان الناس، علماء في الأرض التي خلقها الله، علماء في الأجرام السماوية، علماء يفهمون ويصلون إلى أمور تدل على غاية انتظام الكون، ولو ما كان الكون منتظمًا ما كان سيحصل علوم أصلًا، لأنه لو كانت الأبدان مضطربة وليست على نظام واحد متقارب لما كان هناك طب، لأن الطب إنما هو علاج على تجربة سابقة وتراكم خبرات، فلو لم يكن هؤلاء ناظرون إلى أن الأمور موضوعة في مكانها ما كانوا خرجوا من هذه العلوم الدنيوية.

ماذا نريد منهم بعد أن يخرجوا من العلوم الدنيوية؟ نريد منهم أن يستدلوا بظاهر الأمر على باطنه، يستدلون بالأمور التي وصلوا لها -كل بحسب علمه- إلى ما وراء ذلك؛ وهو الإيمان بوجود الله وأنه الرب وأنه الإله المستحق للعبودية، يؤمنون بوجوده وربوبيته وكمال أسمائه وصفاته، إلى أن يصلوا إلى العبودية. فلا يمكن لإنسان تأمل حق التأمل واستدل من الظاهر على الباطن إلا أن يلتزم الحق، لو كان صادقًا. لكن

من يقول: (لماذا أفكر في أبعد من الظاهر؟ ولماذا أفكر في الدلالات؟ ليست موضوعي، لأكمل أبحاثي، أو لأكمل تجارتي، أو أكمل أعمالي) أو أي من هذا الكلام، فيقال له: (يا لخيبة وخسارة من يفعل هذا، لأن كل هذه الأدلة مرسومة حولك واضحة المعالم لأجل أن تستوعبها وتقول: لا يمكن أن يكون هذا الظاهر المنتظم للا شيء، بل إن هذا الظاهر المنتظم يدلنا على أعظم شيء، وهو توحيده -عزَّ وجلَّ- والإيمان بكماله سبحانه وتعالى)

لا بد أن نؤكد أن هذا شيء خطير، وأن هذا ظن الذين كفروا، لا بد أن ندخل في عبادة التفكر، نعبد الله -عزَّ وجلَّ- بالنظر إلى هذا النظام البديع الذي تحار في فهمه العقول حتى ينتفي أن يكون هذا الخلق باطلًا من أعماق النفس. أهل ظن السوء يعتقدون أن الله خلق الخلق باطلًا، خالٍ من الغاية الجليلة والحكمة الباهرة، وأهل الإيمان يقولون: (بل هذا الخلق منطوٍ على الحق المبين والحكم البالغة)

ونحن مؤمنون أن الله خلق الخلق وخلقنا مهيئين أن ننظر إلى هذا الخلق بما أودعنا من العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار. الله خلق الخلق ومكننا من التصرفات العلمية والعملية في استجلاب منافعنا واستدفاع مضارنا. الله خلق الخلق ونصب للحق دلائل في الآفاق وأنفسنا، ومنحنا النظر من الظاهر إلى الباطن. حين تتكلم عن الإيمان ستقول إن رب العالمين لم يقتصر على هذا المقدار من الألطاف، بل أرسل إلينا رسولًا وأنزل عليه كتابًا بيّن فيه كل دقيق وجليل، وأزاح لنا العلل بالكلية، وأوعدنا ووعدنا، سبحانه وتعالى، كل هذا لكيلا يكون في

القلب أي سوء ظن بالله، وما أخطر هذا الظن، يكاد يكون مهلكًا للعبد؛ لذلك قال عزَّ وجلَّ: (ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

بعد أن ننظر إلى هذه الآية ونفهم أن المطلوب منا أن نعبد الله بعبادة التفكر حتى نصل لحال أهل الإيمان في أواخر آل عمران، لما سمعنا ربهم يصفهم (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، هؤلاء فقهوا أن رب العالمين ما خلق السماوات والأرض لمجرد النظر في ظاهرها إنما المراد أن ننظر في باطنها.

يزيد الأمر وضوحًا الآية التالية: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) لما بيّن ربنا أنه خلق السماوات والأرض بالحق وبيّن خطورة ظن الذين كفروا، أتى بهذه الآية التي فيها استنكار، هذا سيزيد الآية السابقة وضوحًا، استنكار أن يظن ظان أن الله يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، لا يمكن أن يكون المؤمنين المخلصين المتقين كالمفسدين، أبدًا! (سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ) مستحيل، وهذا المعنى قد ورد كثيرا في القرآن، مثلًا تأتي الجاثية بعد ذلك وفيها: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ). هذا سؤال استنكاري، يستنكر عليهم رب العالمين أن يجعل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أن يجعل المتقين كالفجار! لا يمكن. يقول أحد هم ليسوا مثلهم في الدنيا، الذين آمنوا وعملوا الصالحات ربما كانوا ضعفاء في أموالهم أو في أبدانهم، ربما أصابتهم الأمراض، والمتقين لا يمكن أن يكونوا

كالفجار الذين ضاعوا وتاهوا عن الصراط المستقيم، مساواتهم أمر يخالف حكمة الله سبحانه وتعالى.

ولننظر هنا إلى الكلام عن الفئتين: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يقابلهم (المفسدون في الأرض) ، (المتقون) يقابلهم (الفجار) والمقصد: نفي المساواة، وهذا أمر مستقر في عقولنا وفي فطرنا، أنه لا يمكن أن يكونوا متساوين، لكن رب العالمين يقول لنا: (إذا كان عقلكم وفطرتكم لا تقبل أن يكونوا متساوين، أتظنون أن ذلك يليق برب العالمين؟! أو يحسن منه فعل ذلك؟!) هذ لا يليق بالله، أن يجعل المجرمين كالمفسدين. ما الفرق بينهم؟ الفرق بين المؤمنين والكافرين، والمتقين والفاجرين أعظم من أن يوصف، لكن نعده في نقاط محدودة، ومن تفكر سيجد أكثر منها بكثير.

نريد أن نصل إلى أنه لا يمكن أن يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، لا يمكن أن يكون المتقين كالفجار، ما الفرق بينهم؟ هذا هو السؤال. فرق عظيم!

من أوائل الفرق بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض: (قلوبهم) قلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات تغلي بأعمال البر، تبحث عن فرص للقربى إلى رب العالمين، تبذل جهدها أن يكون لها نصيب في كل باب من أبواب القرب إلى الله، هذا قلب الذين آمنوا وعلموا الصالحات، هذا القلب مليء بالإيمان، فيه برد اليقين، يريد صاحبه أن يصل إلى رضا الرحمن، فتجده مجتهد غاية الاجتهاد في

حياته طاعة لله، تفكيره مشغول بما يقربه إلى الله، حياته منظمة على نظام القربى إلى الله.

انظر فيما يقابل ذلك المفسدون في الأرض، وسنرى قلب المفسد كيف يكون، قلبه يغلي بأعمال الفجور، قلبه يغلي بأعمال الفساد، تجده عينه لا تقع وقلبه لا يفكر إلا بما يفسد، وإن كان يمكن أن يدعي لنفسه أنه مصلح، لكن هذا الأمر لا يغتر به إلا الفاسدين، ولا يصدقه إلا الكاذبين. يدعي هو أن عمله سيأتي بالصلاح لكن في حقيقته فساد يجر فساد!

لو نظرت إلى قلب المؤمن الذي آمن وعمل الصالحات ستجد قلبه يغلي بأعمال البر، والمفسد قلبه يغلي بأعمال الفجور، بأعمال الإفساد.

قلب المؤمن يطمئن بذكر الله، وقلب المفسد في الأرض قلبه يطمئن بذكر فساده، وبذكر ما يمكن أن يفسده، وبذكر الفرص التي تأتيه للفساد؛ ولذلك قال تعالى: (**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ**) هذا من جهة قلوبهم، قلوب أهل الإيمان تغلي بأعمال البر وقلوب أهل الكفر والنفاق تغلي بأعمال الإفساد.

ثم من جهة (العمل) نفسه، فالعمل عند أهل الإيمان إنما هو عمل صالح! وصلاحه يكون بمتابعة لنبينا الكريم بعد توحيد رب العالمين فيزيد هذا العمل الصالح صلاحًا وإصلاحًا.

ويقابل هذا أهل الفساد الذين يبدأ سلوكهم في الفساد من عند تسليط الفساد على أهل الصلاح، فتجد رغبته التي في قلبه بالإفساد تتحول إلى

خطة وعمل وفيها من المكر ما فيها، وفيها من خداع المؤمنين ما فيها حتى يصدقوا أنه مصلح، لكن رب العالمين مطلع على الخلق، فأنت أيها المؤمن أحيانًا تقف في موقف ترى هذا الذي هو من المفسدين ربما يكون في نعيم، ربما يكون في رخاء، ربما يكون في صحة وعافية لكن ترى سمه ساريًا في المجتمعات.

في مقابل المؤمن الصالح الذي يقوم بالأعمال الصالحات الباذل جهده أن يصلح تراه في حال من الضيق والمنع، والتضييق الذي يلحظ عليه، لكن في داخلك، في ظنك تقول: (والله ما يساوي الله بينهما) وتقول: (هذا الذي يظهر عيشه أنه ضيق عليه، والذي يظهر قلة الناصرين له والمعينين على الخير، والله إن هذا عند الله في منزلة عالية لا يبلغها هذا الفاجر الذي قد يكون له من الدنيا نصيب سواء كان مال أو شهرة) فحين يأتي الموقف وتجد بعض المنافقين يبجل المفسدين، يكون مثلًا رجلًا كتب كتابات فيها باطل، نشر أفكارًا باطلة والمنافقون يمجدونه، فأنت تقول: (والله ما يساوي الله بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض مهما رفعوك أيها المفسد ومهما حاولوا أن يذيقوك أيها المفسد فإن الله لا يساوي بينهما في الدنيا ولا في الآخرة)

فالأنس الذي في قلب المؤمن لا يستطيع أحد أن يشاركه فيه في مقابل الوحشة التي في قلب المفسد لا يستطيع أحد أن يزيلها عنه.

الطمأنينة والسكينة التي في قلب المؤمن لا يمكن لأحد أن يزيلها عنه ولا أن يشاركه فيها، والخوف والارتباك والتيه الذي في قلب المفسد لا يمكن لأحد أن يزيلها عنه، والآلام بين الناس مشتركة (**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ**

فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ) فالآلام مشتركة (وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)[1] والآمال مختلفة. أهل الإيمان تغلي قلوبهم بأعمال البر، وأهل الإفساد تغلي قلوبهم بأعمال الفساد. أهل الإيمان ترى أعمالهم صالحة مصلحة، وأهل الفساد ترى منهم مكر وخداع ونشر للباطل وإيقاع الناس في الشهوات ويدعون أنهم أهل الصلاح، وأنت في داخلك تقول: (الله ما يساوي بين هذا وهذا) فالمؤمن يحمل في قلبه عقيدته ويرى آثار هذه العقيدة.

حين ترى متقين يمنعون أنفسهم الطعام والشراب، متقين يمنعون أنفسهم أكل مال الحرام، متقين يمنعون أنفسهم من شهوات الناس متهافتون عليها، وهو يتقيها والناس يقولون: (لا تعقد الأمور، افتح الأمر، اجعل الأمر واسع) التقي يقول: (لا والله ما أري الله من نفسي إلا تقوى، اللهم أعني على التقوى).

يأتي الفاجر يفجر أمامه، يأخذ كل ما مر عليه من شهوات ويتمكن منها، وهو ليس مشغول إلا بأعمال الفجور، وانظر الفرق العظيم! واعلم أن فاجرًا دخل أبواب الهوى وأخذ منها ما أراد ولم يتب ومات على ذلك، اعلم أنه لا يمكن أن يكون هذا في حاله ومآله مثل حال التقي ومآله، لذلك قال رسول الله: "عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له"[2].

---

[1] () النساء: 104.

[2] () أخرجه مسلم (2999).

بعد هذا كله نحن متيقنون أنه لا بد من دار أخرى يثاب فيها المطيع ويعاقب فيها الفاجر. هذا الأمر وإن كان مستقرًا عند أهل الإيمان، الحمد لله، لكنه لا بد من التفكير فيه ومراجعته، هذا أمر تشير إليه العقول السليمة والفطر المستقيمة، لا بد من معاد وجزاء، فالناس يرون الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت وهو بهذه الحالة، ويرون المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العادل ألا يظلم مثقال ذرة، فسيأتي يوم القيامة إنصاف هذا من هذا وإن لم يقع هذا في هذه الدار، ما وقع في هذه الدار إذًا لا بد أن يكون هناك دار أخرى. وهذا المعنى يجب أن يكون أمامنا كالقاعدة، مهما رأيت هؤلاء الفجار المفسدين يظهرون سرورًا وسعادة، وتنتشر أخبارهم وصورهم وهم منتشين بما هم فيه من الفجور والفساد، في نفسك أيها المؤمن تقول: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) لا والله ما يساوي الله بينهم، لا والله ما يساوي الله بين المختلفين، لا والله ما يساوي الله بين من بذل الجهد واتكل على الرب وطلب الإعانة والقبول مع من هو شارد عن الله، معرض عن الله، يعيش على ذلك ويموت عليه، لا يمكن أن يتساووا.

فلنرب أنفسنا على عدم تساوي المختلفين، ولنرب أنفسنا على تفاضل المختلفين، ولنؤكد على أن هذه المعاني كلها موجودة في القرآن الذي يرشد إلى المقاصد الصحيحة، والمآخذ العقلية الصريحة، فقال، عزَّ وجلَّ: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)[3] أصحاب العقول السليمة هم الذين يربون أنفسهم على المعاني الصحيحة. فكما أن الواجب علينا أن ننظر في السماوات والأرض، ننظر إلى

---

[3] () ص: 29.

ظاهرها ونعرف من دلالتها عظمة خالقها -سبحانه وتعالى- ونعرف من خلالها أنه لا بد أن يكون هناك يوم آخر يوضع كل واحد في مكانه، كذلك الواجب النظر إلى القرآن، نتدبره ونتعلم فيه إلى أن نعرف ما وراء هذه الكلمات العظيمة، نقرؤه بألسنتنا ونفهمه بقلوبنا ونعرف دلالات القرآن، على ماذا يدلنا وكيف نربي أنفسنا عليه، فالحمد لله الذي لم يساوِ بين التقي والفاجر، ولا بين الصالح المصلح والمفسد، وإلا لو تساووا لفسد العالم!

بهذا المثال نختم، لو افترضنا أن هناك مدرسة فيها تلاميذ صالحين مصلحين، وفيها تلاميذ مفسدين، فوجد المصلحون أن صلاحهم ذهب هباء، وأنهم تساووا مع المفسدين، فهل يجر هذا إلا إلى مآسي؟! فكل يوم ينسحب من فريق المصلحين واحد ينضم إلى المفسدين لأنه يرى المفسدين سائرين على هواهم ويفسدون ولا أحد يكلمهم ولا يعاقبهم، فنقول: (والله هذا باطل، وهذه مدرسة فيها باطل، وهذا موقف باطل من إدارة المدرسة، الحق أن يعطى الصالحون المصلحون حقهم في الرفعة ولا يتساوون مع المفسدين)

فالحمد لله رب العالمين، الحمد لله أنه لم يساوِ وهذا ممتنع على رب العالمين وممتنع على حكمته أن يساوي بين المصلحين والفجار، أن يساوي بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض، فلنعرف هذا ولا تغرنا الصور التي ينظر لها الناس ويعظمونها، لا يغرك ما عليه الناس اليوم من تعظيم الحقيرين وتسليم القيادة للتافهين، لا يغرك هذا وكن على يقين أن الله رب العالمين لا يساوي بين الأشياء المختلفة، فبقي عليك ألا تساوي بينهم، وتنظر في كل شيء وترى هل هذا طيب أو

خبيث، هل هذا صلاح أو إفساد، هل هذا تقوى أو فجور؟ حتى تستقيم أنفسنا على الحق، والحمد لله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.